

وحدة التحليل السياسي*

خيار اللجوء إلى أوروبا وتداعياته على الأزمة في سورية

ازدادت وتيرة هجرة السوريين الذين يعبرون البحر إلى أوروبا طلباً للجوء خلال الأشهر الأخيرة، وتوقعت الأمم المتحدة أن يصل عددهم إلى ٨٥٠ ألف شخص في نهاية سنة ٢٠١٥. وكانت موجات اللجوء خارج سورية بدأت منذ منتصف عام ٢٠١٢، بعد انتقال الثورة السورية إلى طور العمل المسلح، واعتماد النظام سياسات العقاب الجماعي ضد السكان في المناطق والمدن الخارجة عن سيطرته. وتزايدت الوتيرة على نحو مطرد، مع قصف النظام العشوائي للمناطق الواقعة تحت سيطرة المعارضة السورية المسلحة، وإخفاقها في إدارة المناطق المحررة، وعجزها عن إيجاد مقومات البقاء الأساسية لسكانها، إضافة إلى انتشار جماعات جهادية سعت لفرض أفكارها وتصوراتها على المجتمعات المحلية، وارتكبت انتهاكات في حقها.

* وحدة التحليل السياسي في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

البدايات

وارتفاع مستويات العنف، وانتشار القتال في معظم الأراضي السورية، والتضييق على اللاجئين السوريين في مصر ولبنان والأردن. كما ساهم توسع تنظيم الدولة في المناطق الخاضعة لنفوذ المعارضة المسلحة، وسيطرته على مساحات واسعة من سورية، وكذلك هجومه على المناطق الكردية، في زيادة عدد اللاجئين إلى أوروبا؛ إذ فضل آلاف السوريين الأكراد من سكان منطقة عين العرب (كوباني) التوجه إلى ألمانيا مثلاً، نظرًا إلى وجود جالية كردية كبيرة فيها، وعدم رغبتهم في العيش داخل مخيمات اللجوء التركية.

وقد برزت ألمانيا في ذلك الوقت كنقطة جذب للمهاجرين الجدد نتيجة التسهيلات المقدمة من الحكومة الألمانية في ما يتعلق بالإقامة، ولم الشمل، والمعونة الاجتماعية، وكذلك تجاهلها "بصمة دبلن" التي تفرض على اللاجئين تقديم طلبه في أول دولة أوروبية يطوؤها، وهو ما حفز كثيرًا من السوريين على اعتماد خيار اللجوء إليها. وقد أعلنت المفوضية الأوروبية لشؤون اللاجئين أن عدد طلبات اللجوء المقدمة إلى دول الاتحاد الأوروبي من السوريين بلغ ٢١٠ آلاف طلب في الفترة الممتدة من تموز/ يوليو ٢٠١٤، إلى تموز/ يوليو ٢٠١٥^(٣).

غير أن ما سَلط الأضواء على مسألة الهجرة، وأكسبها بعدًا سياسيًا وأخلاقيًا على الصعيد الدولي مؤخرًا، هو التدفق غير المسبوق للاجئين السوريين في الأشهر الأخيرة؛ إذ قدرت المفوضية الأوروبية أعداد المهاجرين السوريين الواصلين إلى أوروبا بأكثر من ٢٨ ألف مهاجر خلال شهر حزيران/ يونيو ٢٠١٥، وأكثر من ٣٢ ألف مهاجر خلال الشهر الذي تلاه^(٤)، مع توقعات تضاعف الأرقام السابقة في إحصائيات شهر آب/ أغسطس، وأيلول/ سبتمبر ٢٠١٥، لتستقبل أوروبا ما بين ٤ آلاف و٥ آلاف لاجئ سوري يوميًا^(٥).

أسباب موجة اللجوء الأخيرة

يُعزى الارتفاع الأخير في معدلات اللجوء إلى مجموعة من العوامل أهمها:

اقتصرت الهجرة إلى أوروبا في الفترة الأولى على الأغنياء والميسورين، والناشطين المدنيين ممن تعرضوا لتهديدات في مناطقهم، وكذلك العاملين مع منظمات الإغاثة الدولية ومنظمات المجتمع المدني. وانضمَّ السوريون المقيمون في أوروبا بهدف العمل أو الدراسة إلى هؤلاء، فحصلوا على وثائق لجوء رسمية، وأُدرجوا ضمن لوائح اللاجئين السوريين في أوروبا، في حين استقرت أغلبية اللاجئين في دول اللجوء الرئيسة (تركيا، والأردن، ولبنان) في انتظار حل سياسي، أو حسم عسكري ينهي الأزمة ويسمح بعودتهم إلى بلادهم. كما جذبت مصر في عهد الرئيس السابق محمد مرسي عشرات آلاف السوريين من أبناء الطبقة الوسطى، نظرًا إلى عدّة أسباب؛ أبرزها مساواتهم بالمصريين في التعليم والصحة، وتسهيلات الإقامة، والسماح لهم بالعمل ونقل أنشطتهم التجارية والصناعية، وانخفاض تكلفة المعيشة في مصر مقارنةً بدول جوار سورية^(٦). لذلك، لم تكن أوروبا وجهة رئيسة بالنسبة إلى اللاجئين السوريين. وبحسب مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، استقبلت دول الاتحاد الأوروبي منذ اندلاع الأزمة حتى نهاية عام ٢٠١٣ نحو ٥٠ ألف لاجئ سوري، وهو رقم محدود مقارنة بدول الجوار^(٧).

”

جذبت مصر في عهد الرئيس السابق محمد مرسي عشرات آلاف السوريين من أبناء الطبقة الوسطى، نظرًا إلى عدّة أسباب؛ أبرزها مساواتهم بالمصريين في التعليم والصحة، وتسهيلات الإقامة، والسماح لهم بالعمل ونقل أنشطتهم التجارية والصناعية، وانخفاض تكلفة المعيشة في مصر مقارنةً بدول جوار سورية

“

لكن هذا الرقم ما لبث أن تضاعف خلال عام ٢٠١٤؛ نتيجة لعوامل مختلفة في صدارتها إخفاق مؤتمر جنيف ٢، وتراجع فرص الحل،

3 Kemal Kirişci: "Why 100,000s of Syrian refugees are fleeing to Europe," *Brookings*, 3/9/2015, at: <http://www.brookings.edu/blogs/order-from-chaos/posts/2015/09/03-eu-refugee-crisis-kirisci>

٤ المرجع نفسه.

٥ "الأمم المتحدة: ٨٥٠ ألف لاجئ يعبرون البحر إلى أوروبا في ٢٠١٥ و٢٠١٦"، رويترز، ٩/ ٢٠١٥، على الرابط: <http://bit.ly/1FczyLs>

١ "المفوضية السامية لشؤون اللاجئين بالقاهرة: 'مرسي' تبنى سياسة الباب المفتوح أمام لاجئي سوريا.. وعدد السوريين بمصر سيصل إلى ١٠٠ ألف نهاية العام الجاري.. وما حدث للاجئين الإثيوبيين 'رد فعل شعبي'"، *اليوم السابع*، ٢٠/ ٦/ ٢٠١٣، على الرابط: <http://bit.ly/1LsM9LE>

٢ "حال اللاجئين السوريين في أوروبا"، *النهار*، ١٤/ ٧/ ٢٠١٤، على الرابط: <http://bit.ly/1VPtInt>

الأمم المتحدة البالغ عددهم أكثر من ٤ ملايين لاجئ^(٦). وخلال السنوات الأربع الماضية، كانت تركيا الوجهة المفضلة للاجئين والمهجرين السوريين لأسباب عديدة؛ منها قربها الجغرافي، واقتصادها القوي، والحكومة الداعمة، وتوافر إمكان العودة، وسهولة التنقل من سورية وإليها. لكن الأوضاع تغيرت كثيرًا خلال الأشهر الماضية، إذ شددت الحكومة التركية إجراءاتها الأمنية، وأغلقت حدودها أمام الخارجين من سورية بسبب التهديدات الأمنية في ولايتها الجنوبية.

• من جهة أخرى، أثارت نتائج الانتخابات البرلمانية، ودخول تركيا مرحلة من عدم الاستقرار السياسي والأمني قلق كثير من السوريين، ودفعتهم إلى البحث عن بدائل، إذ يخشى هؤلاء إخفاق حزب العدالة والتنمية في الحصول على أغلبية في الانتخابات المبكرة المقبلة. يمكنه من تشكيل الحكومة منفردًا، واضطراره إلى تقديم تنازلات لبعض أحزاب المعارضة التي تناصب اللاجئين السوريين العداء وتدعو إلى إعادتهم، وإلى التحالف مع بشار الأسد في مواجهة "الإرهاب".

• بناءً على ذلك، أضحت السواحل التركية، بالنسبة إلى المهاجرين السوريين، أبرز نقطة انطلاق في اتجاه الجزر اليونانية القريبة، وخصوصًا أن السلطات التركية أخذت تتوانى في الآونة الأخيرة في ملاحقة شبكات التهريب، وإعادة مراكب المهاجرين قبل دخولها المياه الإقليمية اليونانية، وكأن الأمر، في ما يبدو، توجيهًا تركيًا جديدًا لمعاينة أوروبا بتقاعسها في البحث عن حلٍّ للأزمة السورية واكتفائها بموقف المتفرج على المعاناة الإنسانية، في ظلّ تحمّل دول الجوار، وخاصة تركيا، أعباء اللجوء.

• **المناخ الجغرافي الملائم:** تكررت الأحداث المأساوية خلال شتاء ٢٠١٥؛ إذ قضى مئات اللاجئين، ومعظمهم من السوريين، غرقًا في مياه البحر المتوسط دون الوصول إلى إيطاليا أو اليونان بسبب سوء الأحوال الجوية. وعلى الرغم من أن حركة الهجرة لم تتوقف، فإن أعدادًا كثيرة من المهاجرين، وخصوصًا العائلات منها، فضّلت تأجيل رحلاتها البحرية إلى أشهر فصل الصيف، على غرار ما يحصل حاليًا.

• **تضاؤل فرص الحل:** شهدت الساحة السورية تطورات مهمة خلال النصف الأول من عام ٢٠١٥. فالانتصارات العسكرية التي حققتها المعارضة المسلحة استنزفت النظام وأظهرت وهنه، وعجزه عن الدفاع عن مواقعه ومناطق مؤيديه. وبالتزامن مع المتغيرات الميدانية والعسكرية، ونتيجة لتوسع تنظيم الدولة في مناطق النظام أيضًا، عاد الحديث عن ضرورة الحل السياسي للأزمة السورية، وشرعت القوى الدولية والإقليمية في جهد دبلوماسي كبير انتهى بالإخفاق، وعادت الأطراف جميعها إلى التصعيد ميدانيًا. وقد مثل الحراك الأخير بارقة أمل لحل الأزمة السورية، ولا سيما بعد أحاديث عن تقارب سعودي - روسي؛ بهدف تجاوز خلافاتهما، ووضع بيان جنيف ١ موضع التنفيذ.

• لكنّ تمسك موسكو ببقاء الأسد، وتنامي وتيرة الدعم العسكري المقدم له، بددًا الآمال بقرب التوصل إلى حلٍّ؛ ما دفع كثيرًا من السوريين الباحثين عن استقرار دائم إلى ركوب البحر بدلًا من انتظار حلٍّ لا يبدو أنه سيأتي قريبًا. ثم إن انسداد الأفق، وتوقع استمرار الأزمة سنوات عديدة، فضلًا عن حاجة سورية إلى عقود؛ حتى تتمكن من تجاوز آثار الأزمة وإعادة الإعمار، دفع حتى بعض السوريين المقيمين في دول الخليج العربية إلى طلب اللجوء إلى أوروبا بحثًا عن استقرار نهائي لهم ولأسرهم.

• **أوضاع اللجوء القاسية:** ألحقت سنوات الحرب الطويلة الضرر بحياة ملايين السوريين ومصالحهم. كما استنزفت اللجوء مقدراتهم ومخزائهم، وأفقدتهم فرص تحسين أوضاعهم الاقتصادية، أو تعليم أبنائهم. فدخل اللجوء الرئيسة (ماعدا تركيا) تعاني مشاكل اقتصادية، واجتماعية، وتنتشر فيها البطالة، إضافةً إلى غلاء المعيشية فيها. وجاء خفض الأمم المتحدة لمساعداتها، ولا سيما في ما يتعلق بالصحة، ودعم التعليم، ليضعف معاناتهم، ويعرضهم للعوز الشديد، ويهدّد مستقبل أبنائهم. وفي المقابل، شكّل ترحيب ألمانيا التي أعلنت نيتها استقبال ٨٠٠ ألف لاجئ خلال عام ٢٠١٥، حافزًا قويًا دفع كثيرًا من طالبي اللجوء السوريين إلى إعادة النظر في خططهم المستقبلية وشدّ الرحال إلى أوروبا، هربًا من أوضاع اللجوء القاسية، وبحثًا عن حياة جديدة تؤمن استقرارًا دائمًا لهم ولأولادهم.

• **أوضاع تركيا:** وفقًا لإحصائية المفوضية العليا لشؤون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة، تحتضن تركيا ١,٨ مليون لاجئ سوري؛ أي نحو ٤٥٪ من إجمالي اللاجئين السوريين في الخارج المسجلين لدى

٦ "تركيا تحتضن ٤٥٪ من إجمالي عدد اللاجئين السوريين في الخارج"، ترك برس، ١٠ / ٧ / ٢٠١٥، على الرابط:

<http://www.turkpress.co/node/10344>

التداعيات

يشكّل اللجوء إلى أوروبا بالنسبة إلى أغلبية المهجرين حلاً لمعاناتهم المستمرة منذ سنوات؛ إذ يؤمن لهم الوصول إليها الاستقرار المادي والنفسي، والتعليم، وفرص العمل، وغير ذلك من المنافع على الصعيد الفردي. وفي المقابل تبرز آثار سلبية عديدة على المستوى الوطني. فعلى خلاف دول اللجوء المجاورة أو الدول العربية الأخرى، تقوم الدول الأوروبية بدمج المهجرين وتوطينهم، وتمنحهم جنسيتها بعد مضي فترة زمنية (٥ سنوات)، وهو ما يعوق عودتهم مستقبلاً.

”

يشكّل اللجوء إلى أوروبا بالنسبة إلى أغلبية المهجرين حلاً لمعاناتهم المستمرة منذ سنوات؛ إذ يؤمن لهم الوصول إليها الاستقرار المادي والنفسي، والتعليم، وفرص العمل، وغير ذلك من المنافع على الصعيد الفردي

“

من أجل ذلك، من المرجح أن تفقد سورية - في حال استمرار وتيرة الهجرة على ما هي عليه أو زيادتها - مئات الآلاف من مواطنيها سنوياً. وتعزز تصريحات المسؤولين الغربيين، وبرامجهم الهادفة إلى تنظيم استقبال المهجرين السوريين خلال السنوات الخمس المقبلة،

مخاوف من وجود توجه غربي لإطالة عمر الأزمة، وحصرها في أحد جوانبها (اللجوء). فمن شأن ذلك أن يحدث خللاً في التركيبة السكانية والديمقراطية لسورية لا يقل أثره عن سياسات التجهير الممنهجة التي يتبعها النظام وحلفائه.

وتساهم الهجرة الحالية في اضمحلال الطبقة الوسطى في سورية؛ إذ تشير عدّة دلائل إلى أنّ المهجرين إلى أوروبا ليسوا من المعدمين داخل المخيمات أو الفقراء العاجزين عن تأمين تكاليف الهجرة المقدرة بنحو ٣ آلاف يورو للشخص الواحد، بل إنهم من أبناء الطبقة الوسطى الباحثين عن استقرار دائم وأوضاع معيشية أفضل (منهم المثقفون، والجامعيون، والمهنيون، والحرفيين).

وفي هذا السياق، يمكن الإشارة إلى دراسة أجراها التلفزيون السويدي متعلقة بمستويات تعليم الوافدين حديثاً إلى السويد خلال عام ٢٠١٤، استناداً إلى إحصائيات مكتب العمل السويدي ومجلس الهجرة، فقد خلصت إلى أنّ اللاجئين السوريين هم الأكثر تعليمًا من بين اللاجئين الحاصلين على إقامة دائمة في هذا البلد، وأنّ ٣٧٪ منهم حاصل على شهادات جامعية أو شهادات فوق الثانوية^(٧).

فضلاً عن ذلك، يُعدّ فقدان عنصر الشباب أحد أبرز الآثار السلبية للهجرة الحالية؛ لأنه عنصر ضروري ومهم في عملية إعادة الإعمار وسيرورة تعافي البلاد مستقبلاً، بعد انتهاء الحرب. ومن المرجح أن تخسر سورية أيضاً أعداداً كبيرة من الجيل الجديد الذي سوف ينشأ في بلاد بعيدة على ثقافة مختلفة تسلخه بالتدريج عن وطنه الأصلي، وتغيّر اهتماماته وأولوياته.

٧ "نسبة الحاصلين على شهادة أكاديمية من اللاجئين السوريين هي الأعلى بالسويد"، السورية. نت، ٢٠١٥/٦/٤، على الرابط:

<http://bit.ly/1IZC4j1>